قولوسي وأهميّتها الكريستولوجية[1]

الأب أيوب شهوان

مقدمة

قد يصعب على القارىء والباحث اكتشاف المعنى الحقيقي لرسائل بولس إذا لم يتعرّفَا قبلاً إلى هوية خصومه الذين حرّر الرسائل ضدّهم، وإلى ما يسببونه لجماعة ما من المؤمنين من أذى. في الرسالتَين إلى أفسس وإلى قولُسّي يبدو أكثر صعوبةً تحديد المعضلات والظروف الحقيقية والدقيقة التي دفعت ببولس إلى تحريرهما، وإلى معرفة الوضع الداخلي في كنيسة أفسس بدقة، و"الهرطقة" التي انتشرت في قولسي وقضّت مضجعه. نشير إلى أن اللاهوتيين والمفسّرين اعتادوا على أن يشدّدوا على بُعد رسالة قُول الكريستولوجي، وعلى إبراز أصلها الحكمي، وبُعدها الكوني. سنحاول إبراز البعد الأهمّ فيها بالنسبة إلى بولس، أي الكريستولوجية.

مكوّنات قولسّي الكريستولوجية

مع الإقرار بأهمية المميزات الكريستولوجية في قول، ينبغي ألاّ يغيب عن البال الدافعُ إلى إبرازها، والهدف من ذلك، لأنه، انطلاقًا من هذين الأمرين، يمكننا أن نستدلّ على الرهانات اللاهوتية الحقيقية المخبوءة فيها.

– كريستولوجيا قول ولاهوتها

يتبيّن من الرسالة إلى قولسي ميلٌ واضح لدى بولس إلى وضع المسيح إلى جانب الله، لأنه في المسيح "يحلّ ملء الألوهة جسديًا/فعليًا σωματικως " (قول ٢:٩)، لكن هذا لا يعني أن قُول ترمي إلى القَول إن المسيح هو الله "الآب"، خاصة وأن العديد من ألقاب يسوع الرب، مثل "ابن" (١:١٣)، و"صورة" و"بكر" (١:١٥)، و"مبدأ" (١:١٨)، لا يمكن أن تُنسَب إلى الآب. ليس الابن الحبيب في أصل مَن هو مخلوق، بل الوسيط، إذ فيه وبه صُنِع كل شيء (١:١٦). لكن قُول تُقرّ برتبة للابن لا تحاكيها أية رتبة. ومرتان يعتبر نشيد قول ١:١٥-٢٠ الابنَ المحجَّ الذي إليه تصبو الخليقة والخلاص:

آ ١٦: به وله كل شيء خُلق.

آ ٢٠: به وله صالح كل شيء.

إن الأداة "له" التي يُطبّقها بولس على المسيح هي محفوظة للآب في أماكن أخرى من رسائل بولس، كما في روم ١١:٣٦؛ ١ قو ٨:٦، لكن هذا الموقف الكريستولوجي لا يتم على حساب الله الآب، لأن همَّ بولس هنا هو المسيح "الوسيط".

١– تعميمًا للفائدة، وتكملةً للمواضيع التي عولِجَت في هذا العدد من **مجلة بيبليا**، ارتأينا أن نقتبس، وبتصرف، قسمًا عن مقال هامّ، ألا وهو:

Jean-Noël ALETTI, «Colossiens: Un tournant dans la christologie néotestamentaire. Problèmes et propositions», *LA* 49 (1999) 211-236.

من الواضح أن نشيد قول ١:١٥-٢٠ ذو طابع حكمي[٢]، من حيث أن العديد من الخطوط التي بواسطتها يتمّ رسم المسيح، هي نفسها التي بها يتكلم العهد القديم على الحكمة؛ لكن هل يسمح ذلك بالجمع بين المسيح وبين الحكمة؟ لا تقول النصوص البيبلية واليهودية إطلاقًا إن كل شيء قد خُلق وتصالح من أجل الحكمة ("لها")، كما تقول آ١٦ و٢٠ على المسيح ("له")، لذا من غير المرجَّح وجود تأثير حكمي في هاتين الآيتَين[٣]، لأن الأسفار البيبلية لا تعتبر قطعًا الحكمةَ "بكرًا"، بل أنها خُلِقَت "في البدء" (سي ٢٤:٩)، "قبل كل شيء" (سي ١:٤ و٩؛ أم ٨:٢٢). بالتالي، لا يهدف قول ١:١٥-٢٠ إلى إبراز الموازاة بين الحكمة وبين ابن الله من أجل الجمع بينهما، ولذا لا يقول إن المسيحَ هو "الحكمة"، بل يشدّد على خضوع الكائنات السماوية الأسمى – عروش، سيادات، رئاسات، سلاطين – من أجل إبراز سموّ المسيح عليها. في الواقع، المسيح هو فوق الكل، وفيه كل كنوز الحكمة مخبوءة (قول ٢:٣). إذا كان له بالملء "كلٌّ" حكمة و"كلٌّ" معرفة، فهذا يعني أنه يجب التوجّهُ إليه دون سواه للحصول عليهما. لكن لماذا لا تذكر قول ٢:٣ مِن كمال المسيح سوى الحكمة والمعرفة؟ لأنه بالمسيح يعرف المؤمنون كلَّ شيء عن الله، وبالتالي لا حاجة لهم للبحث خارجًا عنه، لا في المعتقدات، ولا في الممارسات التقشفية، ولا في غيرها.

من حيث القدرة، والحكمة، والمجد، تضع قول الربِّ يسوع إلى جانب الله، دون المزج بين الآب وبين الابن، كما يتبين ذلك من خلال القول إنه "بكر كل خلق" (١٥:١)؛ هذا القول الذي لا يعني أنه "أول مخلوق"، كما لاحظ ذلك يوحنا فم الذهب[٤]، كون كلمة "بكر" تُبرز إنسانيةَ يسوع. لقد استعمل العهد القديم كلمة "بكر" ليعني بها غيرَ "البكر" بالولادة حصرًا، مثلاً: يُدعى إسرائيلُ "بكرًا"، دون أن يعني ذلك أسبقيةً زمنيةً بالمقارنة مع باقي الشعوب، بل الاختيار والتفضيل[٥]. لا بد من الإشارة هنا إلى أنه، من أجل تحديد معنى الكلمة، ينبغي أخذ تركيبة المقطع كله بعين الاعتبار. هكذا، تبيّن آ١٦-١٧ أنّ عبارة "بكر كل خلق" لا تُفهم من دون ما يليها، أي وساطة الابن الفريدة في عمل الخلق؛ لا يتكلم بولس على خلق الابن، بل على خلق كل مخلوق – الكائنات الأرضية والسماوية خُلِقت كلها فيه وبه. لكن إذا كان الأمر على هذا الحال، لماذا لا يقول بولس صراحةً إن المسيح، ابن الله، "لا ينتمي" إلى سلسلة المخلوقات؟ في الواقع، الابن الحبيب هو "الإنسان" يسوع، الذي مات وقام، وبهذا هو من المخلوقات؛ هكذا، لا يعود بإمكان العبارة "بكر كل خلق" أن تعني فقط الأسبقية، لأن يسوع ولد في الزمان، بل التقدّم على باقي المخلوقات. إذا كان بولس يبرز المسيح في قول في وضع إلهي، فبهدف إبراز سموّه على سائر الكائنات الروحية السُّميا.

– المسيح والكائنات السماوية السُّميا

لا تبرز أيٌّ من رسائل بولس أكثر من قول سموَّ المسيح على كل الكائنات السماوية (رج ١:١٥-٢٠؛ ٢:٩-١٠؛ ٢:١٥)[٦]، ليس أن هذا أو ذاك من المقاطع البولسية لا يذكر انتصارَه على "الرؤساء، والسلطات، والقوات" (١ قو ٢٤:١٥)[٧]. بولس مقتنع بأنه، بإقامة الله للمسيح من الموت، أعطاه سلطانًا على كل الكائنات؛ وكما فعل التقليد المسيحي الأول، الذي قرأ المزاميرَ على ضوء هذا الحدث، كذلك يفعل بولسُ الذي يقول على المسيح إن الله جعل كل شيء تحت قدميه[٨]؛ تعني كلمة "كلّ" حتى القوات السماوية المناهضة لسيادته. لكن لماذا ترجع قول مرات عدة وبإلحاح إلى مسألة سمو المسيح المطلق على الكائنات السماوية؟

نذكّر أولاً أن القوات والسلطات في قُول تشير أولاً إلى الكائنات السماوية؛ يكفي إلقاء نظرة على لائحة قول ١:١٦:

"كل شيء
في السماوات وعلى الأرض

٢– Jean-Noël ALETTI, *Saint Paul: Épître aux Colossiens*, Paris 1993, pp. 86-117

٣– لتأكيد ذلك يتم الاستشهاد عادة بـ أم ٨:٢٢، وبـ حك ٦–٩.

٤– Jean Chrysostome, *Homélie* III, 2(PG 62, col. 318)

٥– رج خر ٤:٢٢؛ إر ٣١:٩؛ سي ٣٦:١١؛ مزامير سليمان ١٨:٤. لقد أُطلق اللقب على الملك، ممثّل إسرائيل (مز ٨٨:٢٨)، وصار بعد المنفى يُفسَّر مسيحانيًا. ويُطلق الأدب اليهودي القديم اللقب عينه على آدم وعلى التوراة.

٦– يبرز اللقب "الابن الحبيب"، في آ ١٣، العلاقة الحميمة، الفريدة والمميزة، التي شاءها الله الآب بالذات.

٧– رج أيضًا فيل ٢:٩-١١، حيث يتم التأكيد على سيادة يسوع المسيح على كل الكائنات، السماوية والأرضية والتي تحت الأرض.

٨– رج ١ قو ١٥:٢٥-٢٧ التي تستعير كريستولوجيًا مز ١١٠:١ و٨:٧.

ما يُرى وما لا يُرى
عروشًا كان أم سيادات
أم رئاسات أم سلاطين
كلّ شيء...".

المقصودُ الكائناتُ السماوية والأرضية. السماوات والأرض تشكل هنا كُلِّيَّةً، هي الكون المخلوق، حيث كانت الكائنات الأسمى كما الأكثر تواضعًا موضوعَ وساطة المسيح. أما الثنائي، "المنظورة وغير المنظورة"، في آ١٦ج، فيكمل السابق ("السماوية/الأرضية")، على قدر ما يدلّ التعبير "غير المنظورة" على أن بولس لا يتكلم فقط على النجوم والكواكب، بل أيضًا على القوات الملائكية.

توجّه لائحة آ١٦، "عروش، وسيادات، ورئاسات، وسلاطين"، القارئَ إلى ما في التيار اليهودي، وتشير إلى الملائكة. وباستعمال وسيلة التراكم (accumulation)، تشدد هذه اللائحة فقط على سموّ (في التراتبية السماوية) الكائنات المذكورة: "العروش والسيادات" يبدو أنها تشير أحيانًا إلى الملائكة الأسمى؛ أما "الرئاسات والسلاطين" (أو "السلطات") فإنها تذكّر باستعمال الرسائل البولسية الأولى (رج ١ قو ١٥:٢٤؛ روم ٨:٣٨). لكن، أكثر من هوية هذه الكائنات الروحية، يرمي المقطع إلى لفت الانتباه إلى قدرتها، وهذه هي بالضبط وظيفة الألقاب المُدرَجة. المسألة المتضمَّنَة هي مسألة العلاقة بين الابن وبين القوات الملائكية الأسمى، التي يُفتَرض أن لها سلطانًا حقيقيًا على العناصر الكونية وعلى البشر. في الواقع، تُقِرُّ الكتابات اليهودية في ذاك العصر بوظائف متنوعة لهذه الكائنات السُّميا: بعضها هو من دون انقطاع أمام العرش الإلهي، بعضها الآخَر هو مسؤول عن سير الكواكب، وبعضها عن المناخات، وبعضها أيضًا مكلَّف بالعقوبات التي تُنزَل بالبشر، الخ[٩]. ولأن قول ١:١٥-٢٠ تربط هذه الكائنات السماوية بالكلية بالمسيح، فهي تجعلنا نفهم أنها لن تكون منافسةً له في أي أمر.

لكن ما هي المعضلة في قولسي؟ هل كان المطلوب من القولسيين أن يؤدوا العبادة لهذه الكائنات السماوية من أجل الحصول على عنايتها أو شفاعتها؟ هل كان يُطلَب منهم، عبر ممارسات تقشفية، أن يستعدوا للرؤى التي تسمح لهم، كرائيّي أسفار الرؤيا، بالبلوغ إلى السماء، وبالمشاركة في الليتورجيا التي يؤديها الملائكةُ لله؟ يرتكز هذان الافتراضان المتعارضان على عبارة "عبادة الملائكة" في قول ٢:١٨، التي يبدو أنّ فهمها حاسم بالنسبة إلى التفكير حول كريستولوجية الرسالة.

كيف ينبغي فهم "عبادة الملائكة"؟ هل يتكلم بولس على العبادة التي يؤديها البشر للملائكة؟ أو عن العبادة التي يؤديها الملائكة لله؟ أو أيضًا عن عبادة تشبه عبادة الملائكة؟

كما يشير إلى ذلك عدد لا بأس به من المفسرين، توجِّه قول ٢:١٤-١٥ القارئ إلى عالم الرؤى وإلى مسألة الملائكة لدى بعض التيارات اليهودية. من أجل تفسير كريستولوجية الرسالة، تبدو قول ٢:٩ و١٠ و١٤-١٥ هامة كما قول ٢:١٨.

المعضلة الكبرى التي يفكر فيها بولس ليست علاقة صحيحة بين المؤمنين وبين الملائكة، بل معضلة الممارسات التقشفية والطقسية التي كان ينادي بها "العلماء"، والتي كانت تعني عودة إلى العبودية. في الحقيقة، لذكر الكائنات السماوية تكرارًا وظيفةٌ بلاغية، وبالتالي كريستولوجية أكيدة: فإذا وافق المؤمنون – وهذا هو الوضع على ما يبدو– على أن المسيح هو الذي له تخضع كل الكائنات السُّميا، وإذا كانوا هم نفسهم أحرارًا بالنسبة إلى هذه الكائنات، لا يتعلقون إلاّ بسيّدهم الوحيد ورأسهم، فلماذا قد يتوجّب عليهم، هم المؤمنون، أن يلتزموا بممارسات تجعلهم عبيدًا لعناصر أشياء أرضية أدنى بكثير؟ فبالخضوع لقواعد الطهارة – البشرية فقط (قول ٢:٨) – التي تدّعي أنها تنجّيهم وتسمح لهم بالبلوغ إلى الليتورجيا السماوية، في حين أنها تجعلهم عبيدًا لعناصر العالم المادية (٢:٨ و٢٠)، قد يعيش المؤمنون تناقضًا مزدوجًا؛ محرَّرين من تهديد العالم السماوي، قد يصبحون عبيدًا للعالم المادي؛ يرغبون في أن يحصلوا على الاتضاع، فإذا هم متكبرون.

يستخدم بولس هذه الكائنات السماوية السميا ليبرز قيمة فرادة الوسيط وتفوّقَه. تشدد كريستولوجية قُول إذًا على المسيح الممجَّد، الذي يمسك بيده ملكوتَه (قول ١:١٣)، السيد الفريد على

٩- بالنسبة إلى الملائكة الصالحين، أنظر، مثلاً، أستير ١٧:٤٧ر؛ ١ أخنوخ ١:٢٠؛ ١٠:٦١؛ وصية يهوذا ٢:٥٢؛ ٢ باروخ ٦:٢١؛ 1QM 8:12

القوات السماوية (قو ١:١٦-١٧؛ ٢:١٠)، مكان وحدة الكون (١:١٧)، ورأس كنيسته (١:٨)، حيث هو كل في الكل (٣:١١)، إذ بكون المؤمنين معه، وبتعلّقهم به، يجدون كرامتهم ومكانهم الحقيقي، بالنسبة إلى ما هو سماوي وما هو أرضي.

– كريستولوجية المجد الوحيد

تشدّد قول، وعلى خلاف غيرها من الرسائل البولسية الأولى، على مجد المسيح وتفوّقه، أكثر منه على موته على الصليب[١٠]. صحيح أن القائم من الموت (قول ٢:١٢)، البكر من بين الأموات (١:١٨)، الجالس عن يمين الله (٣:١-٢)، له الأولية على كل الكائنات. صحيح أيضًا أنه، إذا كان عمل المسيح على الصليب هو بارز بقوة في ١:١٩-٢٠ و٢١، و٢:١٣-١٥، فإن باقي الرسالة تتكلم على علاقة المؤمنين "الحالية" مع سيدهم ومعلّمهم. هذا يعني عدم حاجة هؤلاء للقوات السماوية كي تفتح لهم السماوات، وتفسّر لهم الإرادة الإلهية، لأنهم قائمون نهائيًا مع المسيح، يقاسمونه حياته، وبإمكانهم البلوغ إلى فيض غناه. بالنسبة إلى قول، أولية المسيح ومجده هما شرط بلوغ المؤمنين إلى الملء (٢:٩-١٠).

– الكريستولوجيا والسر

يتفق شرّاح قول على أن "السرّ" في الرسالة (وفي أفسس) ذو مضمون كريستولوجي عميق. لماذا يدعو بولس الإنجيلَ، أي تبشيرَه بالمسيح، "سرًّا" (μυστεριον)؟ في الواقع، في قولسي وأفسس، يدل التعبيرُ "السرّ"، في كل مرة يَرِدُ فيها، على نفس الحقيقة، أي الإنجيل. في قول، يحل التعبير "السرّ" مكان كلمة "إنجيل" التي لا تعود ترد بعد ١:٢٣.

تبدأ قول ١:٢٤-٢:٥ بالتشديد على نشر "السرّ" وإعلانه، لأنّ الأهمّ بالنسبة إلى بولس هو أنه قد بُشِّر بالمسيح، وبالتالي قد بلغ الأمم، لكي يحلّ هناك، ويغمر الجميع بكنوز حكمته (١:٢٨). تتوافق طبيعةُ "السرّ" الكريستولوجيةُ جوهريًا مع تشديد كل الرسالة على الكريستولوجية. فلِكَوْنِ المسيح ينبوعَ الملءِ في كلٍّ معمَّد، تصبح كلُّ التقشّفات والتطهيرات التي تهدف إلى الحصول على رؤى وإيحاءات سماوية باطلة. على خلاف الأبوكالبتيات اليهودية، حيث "الأسرار" (μυστερια) المتعلّقة بالخلاص وبالنهاية لا تُبَلَّغ إلاّ عبر الانخطاف الذي يحصل عليه بعض الصدّيقين والمُنَشَّأين[١١]، يجعل بولس من "السرّ"[١٢] موضوعَ إعلانٍ وتبشيرٍ لجميع الناس؛ هذا يعني تحويرًا جذريًا أدخله الإنجيلُ على الانتظار الأبوكاليبتي.

خاتمـــة

إنَّ ما يدعو إليه بولس، آخر الأمر، في الرسالة إلى القولسيين، هو قراءة "كريستولوجية" لكل تاريخ البشرية والخليقة.

١٠– حول أولية المسيح وسيادته، أنظر قول ١:١٣ و١٥-٢٠؛ ٢:٣؛ ٢:٩-١٥؛ ٢:٢٠؛ ٣:١-٤؛ ٣:١١ب؛ ٣:١٦؛ ٣:٢٤ب؛ ٤:١ب.

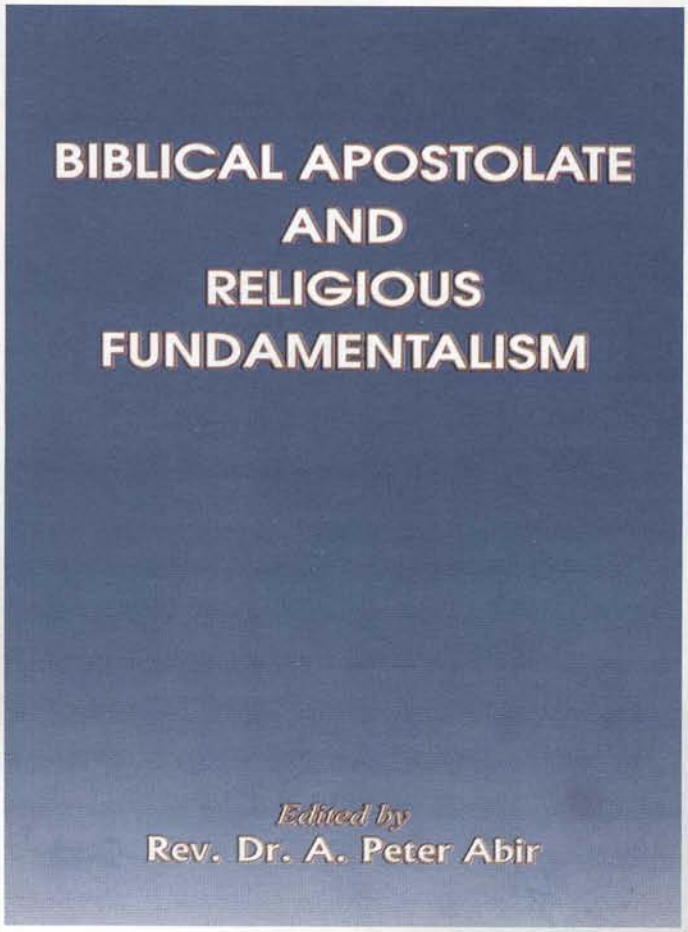

١١– رج ١ أخنوخ ٦٨:١؛ ٦٩:١٤؛ ٧١:٣-٤؛ حياة آدم وحواء اليونانية (= رؤيا موسى) ٣٢:٣-٣٤؛ ٤ عزرا ١٠:٣٨-٣٩.

١٢– لا يستعمل بولس كلمة "سرّ" إلاّ بصيغة المفرد.